



موقف بعض الحدائين من حجية السنة النبوية

ط.د: عمر مسعودي

كلية العلوم الإسلامية بجامعة باتنة 01-الجزائر

omesoudi@gmail.com

د: عبد الكريم رقيق

كلية العلوم الإسلامية بجامعة باتنة 01-الجزائر

akreguig@yahoo.fr

ملخص

عرفت الساحة الفكرية العربية منذ مطلع القرن التاسع عشر، ميلاد عدة شخصيات وأعلام اعتبروا رواداً للفكر الحدائني العربي المعاصر، ولا يمكننا فهم فكر أي مفكر من هؤلاء إلا بالرجوع إلى الثمرات الفكرية التي خلص إليها في مشروعه الفكري، وذلك لأن الحياة الفكرية التي نعيشها في زماننا هذا مليئة بالأفكار، منها الغث ومنها السمين، منها الصالح ومنها الفاسد، منها ما كان منبعه الأصول والنصوص والثوابت، ومنها ما هو هدم ونقض لتلك الأصول والثوابت، ولما كانت السنة النبوية أصلاً من أصول الاستدلال في الفكر الإسلامي، جاء هذا البحث ليقف على مواقف دعاة الفكر الحدائني من حجية السنة النبوية، بهدف استجلاء هذه المواقف ومناقشتها نقاشاً علمياً، ثم بيان مدى انسجام هذه المواقف مع الثقافة الإسلامية السائدة وتراثها. ، ومدى صلاحية تطبيق مناهج الحدائين على السنة النبوية .

الكلمات المفتاحية: حداثة؛ حجية؛ سنة؛ نبوية.

Abstract

The Arab intellectual scene has been known since the beginning of the nineteenth century, the birth of several figures and flags who were considered pioneers of modern Arab modern thought, and we can not understand the thought of any of these thinkers except by referring to the intellectual fruits that he reached in his intellectual project, because the intellectual life that we live in our time Full of ideas, including sickness and fat, including good and bad, Including what was the source of the origins, texts and constants, and some of which is the demolition and contradiction of those fundamentals and constants, and when the prophetic Sunnah was originally one of the origins of inference in Islamic thought, this research

came to stand on the positions of modernist advocates of the authentic Sunnah of the Prophet, in order to clarify these positions and discuss them scientifically. Then, demonstrate the extent to which these attitudes are consistent with the prevailing Islamic culture and heritage. And the validity of the curricula of modernists on the Sunnah of the Prophet.

Keywords: Modernity, Authentic, Sunnah.

مقدمة:

الحمد لله الذي أنزل الوحي حبلاً متيناً، وجعله للناس نوراً مبيناً، وأرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بشيراً ونذيراً وبعد:

لقد تعرضت مصادر الفكر الإسلامي منذ زمن مبكر لدراسات متباينة، غير أنه كان لهاته الدراسات مواقف مختلفة علمية وفكرية، سياسية واجتماعية، لكن الموقف الاستشراقي يعتبر الموقف الأبرز نظراً لكونه موقفاً مغرضاً، أسهم في بلورة أفكار وآراء تطعن في حجية مصادر الفكر الإسلامي، وبما أن السنة النبوية تعتبر المصدر الثاني من بين هاته المصادر بعد القرآن الكريم، فقد كان لها قدر كبير من دراسات المستشرقين التي تطعن في حجيتها وفي اعتبارها مصدراً من مصادر الاستدلال في الفكر الإسلامي.

ومع مشارف بداية القرن التاسع عشر وفدت هذه الأفكار والآراء المناهضة لحجية السنة النبوية إلى ساحة الفكر العربي في ثوب جديد، أخذه دعاة الفكر الحدائبي من كتابات المستشرقين والمناهج النقدية الحديثة للفلاسفة الغربيين، ومنذ ذلك الحين باتت تلك الأفكار والآراء تساق في قوالب جديدة تحمل اسم التحديث والتجديد والنهوض بالفكر الديني، ضمن منظومة فكرية متكاملة النسق تعرف بالفكر الحدائبي العربي، ويعد المشروع الحدائبي من ضمن أكبر المشاريع التي حملت على عاتقها البحث في قضايا الوحي وعلاقته بالفكر والثقافة، وهو ما جعل من البحث في الموضوع ذا أهمية بالغة، ولذا سنحاول في هذا المقال دراسة موقف بعض الحدائبيين من القسم الثاني من الوحي، والذي يتمثل في السنة النبوية، من خلال البحث في موقفهم من أهم قضاياها، ومنه فقد تحورت إشكالية البحث كالآتي: ما مدى حجية السنة النبوية عند بعض دعاة الفكر الحدائبي؟

وقد شكلت هذه الإشكالية الأساسية مجموعة من التساؤلات الجزئية يمكن صياغتها كالآتي:

- 1- ما مدى أخذ والتزام دعاة الفكر الحدائي بمفهوم الوحي قرآنا وسنة؟
 - 2- ماذا يعني بتاريخية السنة عند القارئ الحدائي؟ وما علاقة ذلك بحجيتها؟
 - 3- ما هي الطريقة والكيفية التي سلكها الحدائيون من أجل تأنيس السنة النبوية؟ وما النتيجة التي خلصوا إليها؟
 - 4- ما مكانة ومنزلة السنة النبوية في التشريع الإسلامي عند الحدائين؟
- علماً أن الأهداف التي نصب إلى تحقيقها من خلال بحثنا هي:
- إبراز أهم معالم المنهج النقدي الحدائي المعاصر للسنة النبوية.
 - الكشف عن التنوع الفكري في التعامل مع السنة النبوية
 - عرض آراء وأقوال الحدائين المتعلقة بقضايا السنة النبوية.
 - إبراز مستوى التحدي الذي يفرضه الفكر الحدائي ضد الاتجاهات الفكرية الإسلامية الأخرى.

المنهج المعتمد في البحث:

اعتمد الباحث في إعداد هذا البحث على المنهج التحليلي والمنهج النقدي، بحيث يتمكن من خلال الأول من تحليل الآراء والمقالات فيما يتعلق بموقف الفكر الحدائي من السنة النبوية.

وأما بالنسبة للمنهج النقدي فيستطيع الباحث عبر معايير وأسسه، مناقشة الآراء والأدلة التي اعتمدها دعاة الفكر الحدائي في تقرير المسائل المتعلقة بالسنة النبوية، وتوضيح وجه الصواب أو الخطأ فيها.

الدراسات السابقة:

- إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحدائي العربي المعاصر: بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة ومقارنة الأديان للدكتور مرزوق العمري في جامعة

الأمير عبد القادر، وهو عبارة عن دراسة تردُّ على شبه الحدائين والكتاب المعاصرين، من خلال بيان الشبه الواردة منهم على الوحي قرآناً وسنة وردها رداً علمياً.

-**الحدائثة وموقفها من السنة:** رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الحديث الشريف وعلومه، للدكتور الحارث فخري عيسى عبد الله من الجامعة الأردنية، ويتناول الباحث في هذه الرسالة مواقف الحدائين العرب من السنة النبوية مبيناً المناهج الحدائثة في قراءة النصوص عموماً والنص النبوي على وجه الخصوص.

للإجابة على إشكالية البحث تم تقسيمه إلى العناصر الآتية:

مقدمة:

المطلب الأول: مفهوم الحدائثة.

المطلب الثاني: مفهوم الوحي في الفكر الحدائثي.

المطلب الثالث: تاريخ تدوين السنة النبوية عند الحدائين.

المطلب الرابع: تاريخية السنة وعلاقتها بالحجية.

المطلب الخامس: مكانة السنة بالنسبة للقرآن وعلاقتها بالحجية.

المطلب السادس: حجية السنة في التشريع الإسلامي عند الحدائين.

خاتمة.

المطلب الأول: مفهوم الحداثة.

أولاً: كلمة الحداثة ومحتواها اللغوي.

الحداثة في اللغة: الحَدِيثُ: نقيض القديم والحُدُوثُ نقيض القَدَمَةِ، حَدَثَ الشَّيْءُ يَحْدُثُ حُدُوثًا، وَأَحْدَثُهُ هُوَ فَهُوَ مُحَدَّثٌ، وَالْحُدُوثُ: كَوْنُ الشَّيْءِ لَمْ يَكُنْ، وَالْحَدِيثُ: أَنَسٌ حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ وَحَدَاثَةُ السَّنَنِ: كِنَايَةٌ عَنِ الشَّبَابِ وَأَوَّلِ الْعَمْرِ¹.

ثانياً: تعريف الحداثة عند أهلها الأصليين (الغربيين)

يؤكد الحداثيون الغربيون عن أن أخص مفاهيم الحداثة في كونها تعني: الثورة على كل قديم وثابت والنفور من كل سائد، من أمور العقيدة والفكر والقيم واللغة والشؤون السياسية والأدبية والفنية، فهي إذن ثورة على الواقع بكل ما فيه من ضوابط، وهذا ما تدل عليه الحداثة في جميع مراحلها²، اقرأ إلى بعض الحداثيين وهم يضعون بعض التعريفات للحداثة: يقول جود دون: إن ما ينبغي أن يكون حديثاً لا ينبغي أن يساير أي نزعة ايديولوجية أو كهنوتية، يعتقنها أي مجتمع آخر في الماضي أو الحاضر أو المستقبل³.

ويقول برنيولاتور: ما من أحد حدثي حقاً، إذا لم يقبل بإبعاد الله عن لعبة الطبيعة، كما عن قوانين الجمهورية، وأصبح الله إله الميثافيزيقيا المستبعد وهو مختلف عن إله المسيحيين قبل الحداثي⁴، ولذا يقول المفكر الإسلامي محمد عمارة: «لقد اطلعت على نص لكاتب فرنسي- في كتاب له عن (الحرية والعلمنة ومبدأ الحداثة) فيتكلم فيه بوضوح عن الحداثة فيعتبرها ثمرة التنوير الغربي، فهي في جوهرها طبيعة مع الموروث المعرفي فلم يعد الإنسان يخضع لإلغائه، وأنه منذ الآن فصاعداً راح

1- ابن منظور: لسان العرب، مادة (الحداثة) دار المعارف، القاهرة، ط 01، 1300 هـ، ص 796 .

2 - محمد بن عبد العزيز بن أحمد العلي: الحداثة في العالم العربي دراسة عقديّة، غ م، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، أطروحة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1414، الجزء 01، ص 128 .

3 - محمد بن عبد العزيز بن أحمد العلي، المرجع السابق، ص 132.

4 - السيد صدر الدين القبانجي: الاسس الفلسفية للحداثة، دن، دط، 1432هـ، 2010م، ص

الأمل في الله ينزاح كي يخلي المكان ، لتقدم عصر- العقل وهيمته، وهكذا ولى نظام النعمة الإلهية وأخذ ينمحي ويتلاشى أمام نظام الطبيعة ، بالطبع يمكن للمعجم اللاهوتي القديم أن يستمر، ولكنه لم يعد يوهم أحداً ، فنفس الكلمات لم يعد لها نفس المعاني، لقد أصبح الإنسان نفسه مقياساً للإنسان»¹.

ثالثاً: تعريف الحداثة عند دعائها من بلاد الإسلام:

يقول الحدائي السوري أدونيس: «الحداثة هي موقف معرفي أدى إلى تغيير نظام الحياة، وهذا الموقف المعرفي يقوم على أن الإنسان هو مركز العالم ومصدر القيم، وعلى أن المعرفة اكتشاف للمجهول الذي لا ينتهي، وعلى أن مصدر القيم ليس غيبياً وإنما هو إنساني، وهذا ما يتناقض مع الموقف الإسلامي بدون تأويل جديد أو قراءة جديدة له، هذا والقراءة لما تبدأ بعد»²، ويعرفها الحدائي السوري كمال أبو ديب قائلاً: « الحداثة انقطاع معرفي: ذلك أن مصادرها المعرفية لا تكمن في المصادر المعرفية للتراث، في كتب ابن خلدون الأربعة أو في اللغة المؤسساتية و الفكر الدين، و كون الله مركز الوجود ، و كون السلطة السياسية مدار النشاط الفني ، و كون الفن محاكاة للعالم الخارجي».

مما يمكن أن يلاحظ من خلال التعريفات السابقة للحداثة هو أن الحداثة نظرية معرفية جديدة، لها موقف سلبي من كل القضايا المعرفية القديمة والسابقة لها، وبالأخص ما تعلق من ذلك بقضايا الأديان، فهي تعني الثورة والتنكر والانحياز ضد المصادر المعرفية المعتمدة لدى الإنسان قبل لحظة ظهور الحداثة، لكن الباحث في السياق الفكري الحدائي يجده لم يوفق في القيام بذلك، وإنما يجده أدخل العالم في أزمة روحية نتيجة تنكره للأديان، وأدخله في أزمة فكرية بسبب جحوده للمعارف القبلية لدى الإنسان.

1 - محمد عمارة: ضبط مصطلح الحداثة، ضمن أعمال ندوة بعنوان (الحداثة وما بعد الحداثة)، برعاية جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 13/03/1998، ص 23، 24.

2 - محمد بن عبد العزيز بن أحمد العلي، المرجع السابق، ص 143.

المطلب الثاني: مفهوم الوحي في الفكر الحدائثي.

نظراً لأهمية السنة النبوية ومنزلتها في التشريع الإسلامي، من حيث كونها المصدر الثاني ضمن مصادر التشريع، فقد كانت محط أنظار دعاة الفكر الحدائثي، حيث تناولوا موضوعاتها بالتحليل والدراسة والنقد.

ثم إنهم قد اعتبروا المهمة الأولى للباحث منهم في الوحي بشقيه الكتاب والسنة، تكمن في مراجعة المفهوم السائد للوحي عند العلماء المسلمين من حيث هو إعلام الله تعالى من يصطفيه من عباده ما أراد من هداية بطريقة خفية سريعة، أو هو كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه¹.

وتعتبر دعوة مراجعة مفهوم الوحي لدى الحدائثيين منطلقة من الهاجس الأساسي، الذي يسطر على الخطاب الحدائثي وهو إقصاء أي مفهوم غيبي أو سماوي للوحي، وهو يعني قبول كل مفهوم يكرس بشرية الوحي، ويؤكد إنسيتيه².

وهذا ما سيتضح لنا من خلال ما سنقف عليه من أقوال الحدائثيين، فيما يتعلق بمفهوم الوحي، ومن بين هؤلاء الحدائثيين حسن حنفي، الذي يعمد الى نزع القداسة عن الوحي فيقول: «نشأ التراث من مركز واحد وهو القرآن والسنة، ولا يعني هذان المصدران أي تقديس لهما أو للتراث بل هما مجرد وصف للواقع»³.

وطبقاً لهذا التفسير الجديد للوحي الذي يقرر من خلاله حسن حنفي تبعية الوحي للواقع، يغدو من اللازم أن يكون الوحي داخلياً في مفهوم التراث، الذي لا نحيطه بأي نوع من القداسة سواء من قريب أو من بعيد، بيد أن هذه النظرة التجديدية عند حسن حنفي تؤكد على ضرورة اعتبار الوحي بشقيه الكتاب والسنة، ما هو إلا تعبير أو انعكاس للواقع، علماً أن هذه النتيجة قد توصل إليها انطلاقاً من

1- مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، القاهرة، مكتبة وهبة، ط7، ص27.

2- أحمد إدريس الطعان: العلمانيون والقرآن الكريم، الرياض، دار ابن حزم، ط2008، ص624.

3- حسن حنفي: التراث والتجديد، بيروت- لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط4، 1992م، ص154.

تعريفه لكل من السنة والكتاب في قوله: والسنة: «هي التجربة الفريدة لنموذج التحقق الأول في حياة مبلغ الوحي، للاسترشاد بها كما هو الحال في المسيحية البدائية واليهودية الأولى، والمراحل الأولى في كل المذاهب الفكرية، قبل أن تنالها عوامل التاريخ وصراعات القوى بالانحراف والتغيير أو الضياع، والكتاب: هو تجارب الأمم والشعوب على مدى التاريخ، والتراكم المعرفي الإنساني الشامل المتحقق مع مراجعة العقل والفطرة، وكما تبدو في الحكم والأمثال والمأثورات والآداب الشعبية»¹.

وبهذا يكون حسن حنفي قد خالف مفهوم الوحي عند علماء الإسلام، حيث اعتبر القرآن مجرد وصف لتجارب ومواقف إنسانية أتى مزامناً لها، وليس كلام الله تعالى المنزل ابتداء بإرادة منه لهداية البشر، والأمر نفسه يعتقده في السنة النبوية التي اعتبرها التجربة البشرية الأولى لفهم القرآن من طرف النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وبذلك يكون حسن حنفي قد أخرج السنة من كونها وحياً إلى كونها فهماً تاريخياً خاصاً بالفترة المزامنة للنبوة.

وأما محمد شحرور فله رأي مختلف جزئياً عن المفهوم الذي أتى به حسن حنفي للوحي فهو يرى بضرورة التفريق بين القرآن والسنة، وجعل كلمة الوحي لا تشمل السنة بل تقتصر على القرآن فقط، وعليه فقد قال عن القرآن: «والقرآن حقيقة مطلقة في وجودها خارج الوعي الإنساني، وفهم هذه الحقيقة لا يخضع إلا لقواعد البحث العلمي الموضوعي، وعلى رأسها الفلسفة وكل العلوم الموضوعية من كوسمولوجيا، وفيزياء، وكيمياء، وأصل الكون، والبيولوجيا، وسائر العلوم الطبيعية، أما الشريعة والأخلاق والعبادات والقانون والسياسة والتربية، فليس لها علاقة بالقرآن لا من قريب ولا من بعيد»²، وأما السنة التي أطلق عليها محمد شحرور لفظ أم الكتاب والرسالة فهو يقول عنها: «لم يطلق لفظ الحق على أم الكتاب لأنها قواعد سلوك

1 - حسن حنفي: دراسات فلسفية، القاهرة-مصر، دار الأنجلو المصرية، د.ط، د.ت، ص 103,102.

2 - محمد شحرور: الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة، سورية دمشق، دار الأهالي، دط، ص 105.

إنساني وليست قوانين وجود موضوعي، بل أطلق عليها مصطلح الرسالة ، وبها أصبح محمد رسولاً وبلغها للناس واجتهد في تطبيق أحكامها في زمانه وهي ليست كلمات الله ولا من نواميس الوجود، لأن كلمات الله حق " قوله الحق "، ولا نرى في أحكام أم الكتاب (السنة) مصطلح " قال الله " وهي قابلة للأخذ بها أو تركها»¹.

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن محمد شحورور في رؤيته التجديدية تلك، يرى أن القرآن يختلف عن السنة في كونه حقيقة موضوعية، لها وجود قائم بذاته منفصل عن الإنسان، وعليه فهو من وضع الله تعالى على عكس السنة، فهي ذاتية بحيث لا نرى لها أي وجود خارج الوعي الإنساني، الذي قام بتجسيده محمد صلى الله عليه وسلم حين حاول تطبيق أحكام السنة في زمانه، وقد وجدنا لمحمد شحورور تعليقا على كلمة أحكام السنة في قوله: «السنة أحكام والأحكام تتغير بتغير الزمان والمكان»²، ومنه ندرك أن محمد شحورور يعتبر السنة سنة ذاتية أي ذات وضع بشري (محمد) وليست وحيًا من الله عز وجل أنزله على رسوله محمد وبذلك يكون رافضاً كونها حجة في التشريع الإسلامي.

المطلب الثالث: تاريخ تدوين السنة النبوية عند الحدائين.

إن من أهم القضايا التي يركز إليها كثير من الحدائين في دراسة حجية السنة النبوية، قضية تدوين السنة النبوية، وذلك لأن السنة تعتبر من ضمن النقل، الذي لا بد لنا من التأكد من صحته نسبه لقائله، الأمر الذي أدى بمفكري الحدائة للبحث في تاريخ تدوين السنة.

يعدُّ محمد أركون من أبرز الحدائين الذين ركزوا على هذه المسألة في أبحاثهم، بداية من الوقوف على الفترة الزمنية التي بدأ فيه استخدام تعبير لفظ سنة وهذا ما بيينه في قوله: «في الحالة الراهنة لمعلوماتنا والوثائق التي نمتلكها، نجد أن أول استخدام لتعبير سنة النبي لم يحصل إلا عام 80هـ/700م، وذلك من قبل الخليفة المشهور عمر

1 - محمد شحورور: الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة ، ص 105.

2- محمد شحورور ، نحو أصول جديدة للفقهاء الإسلامي، سورية دمشق، دار الأهالي ، ط2000، ص63.

بن عبد العزيز، وسوف يتم اجتياز خطوة أخرى مع الشافعي الذي فرض السنة بكونها مجموعة الأحاديث الصحيحة، وبصفتها المصدر الموضوعي الثاني أو الأصل الثاني للشريعة بعد القرآن»¹.

ويتحدث محمد أركون عن سبب تأخر تدوين السنة فيقول: «جمع المعلومات والأخبار والسيرة والحديث النبوي، قد تم داخل مناخ ثقافي كانت فيه الأهداف الدنيوية (من شعر وتاريخ وسياسي ومغازي) أو حملات عسكرية) ووقائع اقتصادية....) في أهمية الأهداف الدينية نفسها، ونلاحظ أن الدولتين الأموية ثم العباسية كانتا بحاجة لهذه الأخبار، من أجل تشكيل ارتوذكسية دينية، وتشكيل تراث ثقافي ضروري لترسيخ شرعية السلطة الإسلامية والحفاظ على وحدتها»².

من خلال ما سبق نجد أن محمد أركون يعتبر مصطلح السنة النبوية لم يعرف إلا مع نهاية القرن الأول وهو يعني بهذا أن كبار الصحابة، لم يعرفوا مصطلح السنة النبوية وأنهم لم يأخذوا بالأحاديث النبوية لا بالعمل ولا بالقول؟!، وهذا أمر تكذبه الأخبار النقلية والوقائع التاريخية عن تلك الفترة، ثم إن محمد أركون يعتبر تدوين السنة لم يأت إلا نتيجة أسباب عديدة، أهمها العامل السياسي الذي اعتمده الدولة الأموية ثم بعدها العباسية، من أجل التدليل على شرعية حكمها من خلال الأحاديث النبوية، علماً أن هذا الرأي لم ينفرد به محمد أركون لوحده فقد شاطره فيه محمد شحرور من خلال قوله: «إن السبب الأساسي لجمع الحديث أولاً وللتأكيد عليه ثانياً، هو سبب سياسي بحت، تولد عنه منطلق فكري عقائدي بعد سقوط دولة الخلفاء الراشدين وظهور الدولة الأموية، ظهرت فرق في الإسلام كلها ذات منشأ سياسي، وكان هذا المنشأ بحاجة إلى أرضية أيديولوجية (الشيعة، الخوارج) وظهرت بداية تيارات فكرية فلسفية مثل الجهمية والقدرية والمرجئة، هذه التيارات حاولت تبني الفهم الفلسفي للقرآن وللرسالة.... إن كل حركة سياسية، السنة، الشيعة،

1- محمد أركون: الفكر الاسلامي قراءة علمية، بيروت، لبنان، مركز الانهاء القومي، ط 02، 1996، ص22.

2- محمد أركون: الفكر الاسلامي قراءة علمية، ص23.

الخوارج...الخ، كانت بحاجة إلى أرضية فكرية عقائدية لكي تكسب المؤيدين وتحافظ على استمراريتها مع الزمن، فكان الحديث هو المرجع الفكري لهذه الفرق السياسية»¹.

ويزيد محمد شحرور تأكيداً لفكرة أن السنة النبوية تم تدوينها من أجل تحقيق أغراض سياسية، في موضع آخر من كتاباته فيقول: «وقت الخليفة المتوكل تم وضع الصحابة خارج التاريخ، وولدت مصطلحات «إجماع أهل السنة» و«إجماع الصحابة» و«عدالة الصحابة»، وتمت فبركة الأحاديث النبوية، التي تدعم ذلك كله، منذ ذلك الوقت صار علماء السنة النبوية علماء السلطة، وأصبح الفقه والسلطة توأمين لا يفترقان.... فتحوّلت الثقافة العربية الإسلامية بالتدريج منذ عهد المتوكل، إلى ثقافة مسطحة لا محل فيها لبعث الصيرورة.... ومن هنا نفهم أخيراً كيف وصلنا إلى الاعتقاد بأن السنة القولية وحي ثان، بدلاً من القول بأن الرسول الأعظم(ص) كان المجتهد الأول الذي صاغ للفكر المطلق الموحى إليه قالباً موضعياً، من سيرورة وصيرورة تاريخية تحكم وجوده ووجود مجتمعه»².

يذهب محمد أركون ومحمد شحرور إلى أن هذا التدوين الذي بدأ متأخراً إنما تم بدافع سياسي، وبأمر من السلطة الحاكمة التي مثلها الخليفة المتوكل وعمر بن عبد العزيز، وليس بدافع علمي خالص كما يظن جمهور المسلمين، ولكن السؤال الذي يطرح على القائل بهذا الرأي، هل كل أمر يأمر الحاكم به العلماء يهدف من خلاله تحقيق مصلحة شخصية بالضرورة؟ قد يكون ذلك صحيحاً إن كان النظام الذي يحكم به نظاماً علمانياً يتبع المصلحة أنى وجدها، ثم إن الحكام في ذلك الزمان من أمثال عمر بن عبد العزيز قد كان يعد من العلماء، وعليه استطاع أن يشارك العلماء في الرأي والمشورة، ولذلك نجده كتب إلى أبي بكر بن حزم «أن انظر ما كان عندك أي في بلدك من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب

1- محمد شحرور، الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة، ص 569، 566.

2- محمد شحرور، نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي، ص 61.

العلماء¹ وكما نرى فإن نص الرسالة هذا ليس فيه أي طلب تخصيص بجمع فقط الأحاديث التي تحمل الأفكار التي تساعد الخليفة على توطيد ملكه وسلطانه، وإثبات شرعية حكمه كما يزعم دعاة الفكر الحدائثي.

ثم إننا نجد من ضمن الحدائثيين عبد المجيد الشرفي الذي حاول أن يستدل لنا عن طريق الأحاديث النبوية ذاتها على أن تدوين السنة النبوية كان بدافع سياسي، وليس بسبب علمي من خلال قوله: «إن شأن الحديث لعجيب حقاً! فلقد احتفظ هو ذاته بما يفيد نهي الرسول عن تدوينه، وأمره بالألا يكتب سوى القرآن أي بما ينسف مشروعيته من الأساس، أراد النبي أن يكون القرآن وحده النبراس الذي يهدي المسلمين في حياته وبعد مماته، وألا تكون لأقواله هو صبغة معيارية ملزمة، وأراد المسلمون غير ذلك بل عكسه... ولا شك أن الجيل الأول من المسلمين قد التزم التزاماً كاملاً، بذلك النهي عن كتابة الأقوال التي كانوا شاهدين عليها، وأن الأشخاص القلائل الذين دونوا عن الصحابة في صحائف متثورة ما سمعوه مشافهة، كانوا يرغبون في الاحتفاظ بما بلغهم لأنفسهم على سبيل التبرك، أكثر مما كانوا يسعون إلى بثه من حولهم، وليس من قبيل الصدفة أن ينسب خرق هذا المبدأ على رأس المائة الثانية إلى عمر بن عبد العزيز»³.

ولكن يمكن مناقشة هذه المسألة على النحو التالي:

إن الحديث الذي يقصده عبد المجيد الشرفي في كلامه هو حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه مسلم في صحيحه قال: «حَدَّثَنَا هَدَّابُ بْنُ خَالِدٍ الْأَزْدِيُّ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي عَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُحْهُ

1- أخرجه الدارمي في سننه، باب من رخص في كتابة العلم، الرقم 488، الجزء 01، ص 137.

2- محمد بن محمد أبو شهبة، دفاع عن السنة، مكتبة السنة، 1989، دط، ص 22.

3- عبد المجيد الشرفي، الإسلام بين الرسالة والتاريخ، بيروت، دار الطليعة، ط 01، 2001، ص 177.

وَحَدَّثُوا عَنِّي وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ - قَالَ هَمَّامٌ أَحْسِبُهُ قَالَ - مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ¹.

هذا الحديث يحمل عدة مقاصد للرسول صلى الله عليه وسلم منها:

أولاً: إن نبي الرسول صلى الله عليه وسلم عن كتابة الأحاديث كان خشية أن يلتبس على البعض بالقرآن الكريم.

ثانياً: الاعتماد على قوة حفظ الصحابة وسيلان أذهانهم في حفظ السنة النبوية، علماً أن الحفظ ميزة قد تميز بها العرب، الأمر الذي أحر ظهور الكتابة عندهم².

ومن خلال الحديث النبوي الآتي يتبين ويتجلى هذا الأمر جيداً قال عطاء بن يسار، عن أبي هريرة قال: «كُنَّا قُعُودًا نَكْتُبُ مَا نَسْمَعُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَرَجَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي تَكْتُبُونَ؟ فَقُلْنَا: مَا نَسْمَعُ مِنْكَ، فَقَالَ: أَكْتُابٌ مَعَ كِتَابِ اللَّهِ؟ أَمْحُضُوا كِتَابَ اللَّهِ، وَأَخْلِصُوهُ، قَالَ: فَجَمَعْنَا مَا كَتَبْنَا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ أَحْرَقْنَاهُ بِالنَّارِ، قُلْنَا: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ، أَنْتَ حَدَّثْتَ عَنْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، تَحَدَّثُوا عَنِّي وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْتَ حَدَّثْتَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، تَحَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، فَإِنَّكُمْ لَا تَحَدَّثُونَ عَنْهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا وَقَدْ كَانَ فِيهِمْ أَعْجَبُ مِنْهُ»³، إننا نجد في جواب الرسول صلى الله عليه وسلم (نعم، تحدّثوا عني ولا حرج) عندما سأله الصحابة (قلنا: أي رسول الله، أنت حدّثت عنك؟) دليلاً واضحاً على أن الرسول صلى الله عليه وسلم يثق في قدرة الصحابة على حفظ الأحاديث التي يقولها لهم، فلذلك نهى عن كتابتها.

1 - أخرجه مسلم في صحيحه، باب الثبوت في الحديث وحكم كتابة العلم، الرقم 7702، الجزء 08، ص 229.

2 - محمد بن محمد أبو شهبة، دفاع عن السنة، ص 20، 19.

3 - أخرجه الإمام أحمد في مسنده، باب مسند أبي سعيد الخدري، الرقم 11107، الجزء 03، ص 12.

ثم إن ميزة الصحابة وسمة عصرهم هي حفظ العلم وتداوله، فقد كانوا يتبعون المشافهة أسلوباً، ولذلك كان انتشار العلم بالتدوين أسلوباً غير ذي جدوى، مع أمة هذه صفتها مع العلم، ثم إن المشافهة هي الأسلوب الأدق لنقل العلم وتبليغه¹.

ثالثاً: الحديث الذي يستدل به الحداثيون يُحْمَلُ ويرد إلى الروايات الدالة على الإذن في الكتابة لبعض الصحابة وهي: «ما روى أبو داود عن مُسَدِّدٍ وَأَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ قَالَا حَدَّثَنَا يَحْيَى عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَخْنَسِ عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُعَيْثٍ عَنْ يُونُسَ بْنِ مَاهَكَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أُرِيدُ حِفْظَهُ فَهَنْتَنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْعُضْبِ وَالرِّصَا فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَأَوْمَأَ بِأَصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ فَقَالَ « أَكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ »².

ومن هذا يرى العلماء أن أحاديث الإذن ناسخة لأحاديث النهي، لأن النهي كان في مبدأ الأمر حين خيف اختلاط الأحاديث بالقرآن وبعدها نسخ الحكم³.

المطلب الرابع: تاريخية السنة وعلاقتها بالحجية.

إن مقدمات ما قاله الحداثيون عن تاريخ تدوين السنة ، دفعتهم إلى أن يتجرأوا على السنة النبوية، والقول بأنها تاريخية من خلال حصر أحكامها وتشريعاتها بالإطار الزماني والمكاني الذي عاش فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك لأنها تعد في نظرهم مجرد عادات وتقاليد لأنها ليست تبليغاً من عند الله، وإنما هي تدرج ضمن سياق الوجود الاجتماعي للشخص التاريخي (النبوي) على حد تعبير نصر حامد أبو زيد الذي يقول: يجب أن نفهم أقوال الرسول الخاصة بوجوب اتباع سنته بأن المقصود بها أقواله وأفعاله الشارحة والمبينة لما ورد مجملاً في تعاليم القرآن، وما سوى ذلك من

1- الحرث فخري عيسى عبد الله ، الحدائثة وموقفها من السنة، القاهرة، دار السلام، ط01، 2013، ص182.

2- أخرجه أبو داود في سننه، باب في كتابة العلم، الرقم 3648 ، الجزء03، ص356.

3- محمد بن محمد أبو شهبة ، دفاع عن السنة، ص20، 19.

الأقوال والأفعال يجب أن يندرج في سياق الوجود الاجتماعي للشخص التاريخي، بمعنى أنها أقوال غير ملزمة للمسلم في العصور التالية هذه التفرقة بين سنة الوحي وسنة العادات¹.

ويوافقه في هذا الطرح محمد شحرور الذي يقول: جاءت الطاعة للرسول من مقام الرسالة، ولم تأت للنبي من مقام النبوة، ونفهم لماذا لا نجد في التنزيل الحكيم عبارة «أطيعوا النبي»، كما نفهم أيضاً أن الله سبحانه أعطاه الحق بوضع تشريعات إضافية لبناء دولة ومجتمع ولكن بدون وحي، لأن هذه التشريعات الإضافية في تقييد الحلال المطلق وإطلاق المقيد تحمل الطابع النسبي الزماني المكاني، ولهذا السبب بالذات أمر النبي بعدم تدوين أحاديثه لأنها تاريخية غير أبدية².

تضعنا هذه القراءة الحدائية للسنة في مغالطة وجودية وفكرية كبيرة، حينما تفترض أن السنة مجرد عادات وتقاليد اجتماعية- على حد تعبير نصر حامد أبو زيد، وأنها أحاديث لا تخرج عن طابع الزمان والمكان الذي قيلت فيه- على قول محمد شحرور- وبالتالي يجب أن يترك ما أقره النبي من هذا القبيل على اعتبار أنه ليس وحيًا وإنما هي فقط اجتهاد من النبي، والنبي يعد في نظر دعاة الفكر الحدائي المجتهد الأول في فهم الخطاب القرآني، معتبرين فهمه للنص ذاك فهماً تاريخياً، وعليه فإن الأمر يهدف توصلت إليه هذه القراءة الحدائية للسنة هو وصفها بالتاريخية، إذ إن هذا الأمر يهدف إلى إسقاط حجية السنة واعتبارها مصدراً من مصادر الشريعة.

ويؤكد محمد شحرور هذا الرأي بقوله: لقد انقطع النبي من لحظة وفاته عن الدنيا، فلم تعد له علاقة بكل ما حدث بعده وعلاقة الحديث واضحة بارتباطها بأسباب سياسية واقتصادية وشعورية وثقافية وعقائدية³.

ولذلك نجد حمادي ذويب يعتبر الآية القرآنية التي تقول بعصمة الرسول في قوله تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ ۓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ ۔} [سورة

1 - نصر- حامد أبو زيد: النص السلطنة الحقيقة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط: 01، 1995، ص 17.

2 - محمد شحرور، نحو أصول جديدة للفقهاء الإسلاميين، ص 154-155.

3 - محمد شحرور، دراسات إسلامية معاصرة الدولة والمجتمع، دار الأهل، دط، ص: 219.

النجم:2-3]، أنها لا تعني أن كل ما تكلم به النبي في شيء من تحليل أو تحريم أو إيجاب فهو عن الله تعالى بيقين، وإنما منطوقها يعني إخراج جزء غير هام من مضمون الرسالة هو أفعال الرسول من حيز الوحي إلى مجال الاجتهاد البشري، وذلك لأن الضمير المستتر في الفعل (ينطق) يعود للكتاب المنزل لا إلى النبي¹.

مناقشة الأقوال السابقة:

إن الدعوة إلى تطبيق المنهج التاريخي على السنة والتعامل معها على أن صلاحيتها محصورة في الزمان والمكان الذي قيلت فيه، دعوة يتعارض مفهومها مع الفهم الإسلامي الذي يتعامل مع النصوص بصفقتها وحياتها وهي بهذا الوصف تصلح لمطلق الزمان والمكان²، وأما علاقة تلك النصوص مع السياق التاريخي الذي نزلت فيه أو وردت فيه فهو لا يعدو أن يكون بمثابة كما يقول طه عبد الرحمن: التحقق الأول والأمثل للمقاصد أو القيم التي تحملها هذه الآيات، ينتج عن هذا أنه كلما تجددت الظروف والسيئات أمكن أن تجدد هذه القيم ويتجدد الإيمان بها، فتكون محفوظة بحفظ قيمها في مختلف الأحوال والأطوار³.

مع العلم أن استناد القارئ الحداثي إلى شبهة مناسبة التشريع النبوي للأحداث اليومية في ذلك العصر للقول بتاريخية السنة النبوية، أمر لا يمكن الاعتماد عليه في الاستدلال، وذلك لأن أهل القراءة الحداثية اتخذوا تلك المسائل ذريعة لتقرير البنية التاريخية للسنة النبوية وتحصيل المشروعية لممارسة النقد التاريخي عليها، متجاوزين الحدود التي وقف عندها المفسرون والفقهاء⁴.

ثم إن كلام محمد شحرور السابق الذي حصر من خلاله طاعة النبي صلى الله عليه وسلم في فترة حياته دون مماته، كلام مردود من حيث إن الطاعة كما كانت واجبة

1 - حمادي ذويب، السنة بين الأصول والتاريخ، المركز الثقافي، الرباط، ط: 02، 2013، ص56-57.

2 - الحرث فخري عيسى عبد الله، الحداثة وموقفها من السنة، ص318.

3 - طه عبد الرحمن، روح الحداثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط: 01، 2006، ص203.

4 - طه عبد الرحمن، روح الحداثة، ص185.

على الصحابة بأمر الله في القرآن اتَّبَعَ الرسول وطاعته في حياته، وجب عليهم وعلى من بعدهم من المُسْلِمِينَ اتَّبَاعٌ سُنَّتِهِ بعد وفاته، لأن النصوص التي أوجبت طاعته عامة لم تقيد ذلك بزمن حياته، ولا بصحابه دُونَ غيرهم، ولأن العلة جامعة بينهم وبين من بعدهم، وهي أنهم اتَّبَعُوا لرسول أمر الله بِاتِّبَاعِهِ وَطَاعَتِهِ، ولأن العلة أيضاً جامعة بين حياته ووفاته، إذ كان قوله وَحُكْمُهُ وفعله ناشئاً عن مُشْرِعٍ معصوم أمر الله بامتثال أمره، فلا يختلف الحال بين أن يكون حَيًّا أو ميتاً¹.

وأمام هذه التوظيفات الحدائثية المختلفة للتاريخية وأمام ووقوفنا على الأهداف التي كانت ترمي إليها تلك التوظيفات، فقد كان توظيفها في نقد القراءة السائدة للسنة النبوية، بغية إبدالها بقراءة أخرى بديلة، وكان توظيفها كمقولة تقدمية لإحداث قطعة مع السنة النبوية، وإنكار حجيتها من حيث كونها مرجعية دينية وتأکید بشرية أحداثها، ولا شك أن هذه التوظيفات الحدائثية لمفهوم التاريخية في مجال دراسة النص الإسلامي مرفوضة من جميع جوانبها، ثم إنه رهان يستحيل كسبه وهذا باعتراف دعاة التاريخية أنفسهم يقول محمد اركون: التحدث عن التاريخية اليوم بصورة منطقية في الوسط الإسلامي أمر ضروري من وجهة نظر ذاتية، وجهة نظر الباحث، ولكنه من الوجهة الموضوعية أمر خطير إن لم يكن مستحيلاً².

المطلب الخامس: مكانة السنة بالنسبة للقرآن وعلاقتها بالحججة.

لا نزاع ولا خلاف في أن السنة النبوية أصل مستقل، وأنها هي الأصل الثاني من أصول التشريع الإسلامي، وأن الواجب على جميع المسلمين، بل على جميع الأمة الأخذ بها، والاعتقاد عليها والاحتجاج بها إذا صح السند عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقد دل على هذا المعنى آيات كثيرات من كتاب الله، وأحاديث صحيحة

1- مصطفى بن حسني السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي: دمشق

2- سوريا، بيروت - لبنان، ط: 03، 1402 هـ - 1982 م، ص 62.

2- العمري مرزوق، إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحدائثي العربي المعاصر، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه، قسم العقيدة ومقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2005-2006م، ص: 41، 40.

عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، كما دل على هذا المعنى إجماع أهل العلم قاطبة على وجوب الأخذ بها، والإنكار على من أعرض عنها أو خالفها.

غير أن هذا الأمر عند بعض دعاة الفكر الحدائثي غير مسلم به، من حيث إنهم لا يعترفون بكون السنة النبوية الأصل الثاني في التشريع الإسلامي، وهذا ما نجده عند نصر حامد أبو زيد الذي يزعم أن توحيد الشافعي بين وحي القرآن ووحى السنة لا يستقيم، لأن النتيجة النهائية لمثل ذلك، التوحيد بين الإلهي والبشري، ولأنه كذلك يوسع دور السنة الذي يتمثل في أنها تابعة للقرآن، إما بالتكرار، أو الشرح والبيان، ويكاد يختفي دورها التشريعي المستقل بوصفها وحياً¹، وسبب انتصار الشافعي للسنة يفسر بمحاولته لتواصل السلطة العربية القرشية التي بدأها الرسول العربي القرشي، لكن النظام العباسي الجديد حاد عن ذلك الطريق: الطريق السلفي المحافظ الذي يحتكم إلى النص لا إلى العقل، ومن هنا كان لجوء الشافعي إلى تأسيس حجية السنة على النص المقدس والتسامي بها إلى منزلة الوحي القرآني².

ولذلك فإننا نجد الحدائثيين يحاولون إثبات أن الإمام الشافعي قد سعى إلى تكريس حجية السنة النبوية انطلاقاً من آيات القرآن الكريم³، ولذا فقد كان عمل دعاة الفكر الحدائثي يرتكز على تأويل تلك الآيات تأويلاً يفهم منه خلاف ما استدل به الإمام الشافعي، ومن تلك التأويلات ما ذهب إليه محمد شحرور الذي ينظر إلى ما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم: 2-3]، أنه يشمل كل ما نطق به النبي في حياته، وأن الوحي وحيان قرآن وسنة، محل حذر وتحفظ، إذ لو صدق قولهم لوجب حتماً أن يدخل الحديث النبوي في الحفظ الإلهي، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [سورة

1 - نصر حامد أبو زيد، الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط: 02، 1996، ص: 89-90.

2 - حمادي ذويب، السنة بين الأصول والتاريخ، ص: 76، 75.

3 - نادر حمادي، إسلام الفقهاء، دار الطليعة، بيروت، ط: 01، 2006، ص: 55.

الحشر:7]، التي تتحدث عن الفيء ومصارفه، يقول تعالى: {مَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَيَّ رَسُولَهُ مِنْ أَهْلِ الْقُرْبَىٰ فَلَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} [سورة الحشر:7]، ولذلك فهو يرى أن خصوصية السياق لا تسمح لنا بإطلاقه وتعميمه وسحبه على كل ما ورد في السنة، بل تعني ما آتاكم من الفيء والغنيمة¹، ويفهم محمد شحرور كذلك من قوله تعالى: {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ} [سورة النساء:112]، وقوله تعالى: {وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} [سورة الأحزاب:33]، بأن الحكمة هنا تعني تعاليم عامة أخلاقية تجري بها ألسن الحكماء ولا تحتاج لزوماً إلى وحي، ولا إلى نبوة ولا إلى رسالة، فلقد لم يكن نبياً، وهذا معني قوله تعالى: {بُيُوتِ الْحِكْمَةِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [سورة البقرة:268]، لذا فإن تفسير الشافعي للحكمة بأنها السنة ليس له أي أساس في التنزيل الحكيم².

يظهر لنا مما سبق أن اهتمام دعاة الخطاب الحدائي بمسألة البحث في الفروق بين السنة والقرآن، هو الأمر الذي أفضى بهم إلى إنكار حجية السنة بل إلى إنكار كونها وحيًا، لأن ذلك في نظرهم يؤدي إلى وحدة هذين النصين من حيث المصدر³، القرآن والسنة والاشتراك في المنزلة والمكانة وبالتالي التساوي في درجة الحجية، ولذلك وجب عندهم اعتبار السنة لا ترقى إلى مستوى القرآن من حيث الاستمداد والمصدر. ووقوفاً على الفهم الحدائي للآيات السابقة فإننا وجدنا مغالطات كبيرة قد وقع فيها دعاة الفكر الحدائي، والصحيح أن المعنى من قوله تعالى: (وما ينطق عن الهوى) أي ما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن ولا بغيره، (إن هو إلا وحي يوحى) أي ما هذا الذي ينطق به من القرآن وكل أحواله وأقواله وأفعاله إلا وحي من الله يوحى إليه، ويوحى صفة لوحي تفيد الاستمرار التجديدي وتفيد نفي المجاز، أي هو وحي

1 - محمد شحرور، نحو أصول جديدة للفقهاء الإسلامي، ص 129-130.

2 - المرجع نفسه، ص: 161، 162.

3 - العمري مرزوق، إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحدائي العربي المعاصر، ص: 56.

حقيقة لا لمجرد التسمية، والآية دليل على كون السنة المطهرة وحيًا يوحى أيضًا، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٧﴾ [سورة الحشر:7]، فبه نعرف كما يقول الشعراوي: أن من مميزاته صلى الله عليه وسلم أنه خاتم الأنبياء بحق، ولن تجد في الموكب الرسالي رسولا أوكل له الله أن ينشئ حكما جديدا لم ينزل في كتاب الله إلا سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، لقد أعطى الله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم التفويض في أن يشرع عن الله؛ في ظل عصمة الله له، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا مَا يُنْتَلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ [سورة الأحزاب:33]، أي مَا يُنْتَلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَالْحِكْمَةِ، قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالتَّوَابِلِ: "آيَاتِ اللَّهِ الْقُرْآنَ، وَ" الْحِكْمَةُ " السُّنَّةُ².

ثم إن استقلال السنة بالتشريع يعني أنها قد جاءت بمعتقدات وأحكام لم ينص عليها القرآن الكريم وأنها حجة في ذلك، أي إن الله تعبدنا بذلك وأوجب علينا اعتقاده والعمل به، وأن وظيفة السنة لا تقتصر على تأكيد أحكام القرآن وبيانها، بل من وظيفتها أيضا أن تضيف تشريعات أخرى بوحى من الله تعالى، وهي تشريعات ملزمة للمسلمين كالزام القسمين الأولين، وكالزام ما جاء به القرآن الكريم نفسه، حيث إن الوحي هو مصدر جميع ذلك، ودليل ذلك إضافة إلى الآيات السابقة من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [سورة النساء:58]³.

- 1 - محمد صديق خان البخاري، فتح البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، 1412 هـ - 1992 م، ج13، ص245.
- 2 - محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط:02، 1384 هـ - 1964 م، ج:14، ص143.
- 3 - الحسين شواط، حجية السنة وتاريخها، الجامعة الأمريكية العالمية، ط:1425، 01هـ / 2004م، ص215، 214.

علمًا أن تلك التفاسير الحدائيه السابقة لتلك الآيات كانت خاضعة للعملية الانتقائية، بحيث نجد القارئ الحدائيه ينتقي التفاسير الشاذة التي ذكرها العلماء على أساس أنها أفكار شاذة لا تتبع أو شبهات زائفة لا يوقف عندها، فجعلوا منها حقائق جوهرية حكموها في الأقوال المشهورة والأصول المقررة، وبنو عليه أحكاماً، وغير خاف أن الذي يتبع الشاذ من أقوال المفسرين ويتعلق به يريد الميل عن الحق والصواب¹.

المطلب السادس: حجية السنة في التشريع الإسلامي عند الحدائين.

إن الكلام الذي سبق ذكره من أقوال الحدائين بخصوص السنة النبوية، قد كان الدافع لهم عليه، هو محاولة الطعن في حجية السنة في التشريع الإسلامي، ولذلك نجدهم يناقشون القضايا المتعلقة بحجية السنة ويحاولون زحزحة القناعات الدائرة حولها، وهو ما سنقف عليه في قول محمد حمزة: «ولئن عد الحديث النبوي نصاً تأسيسياً يلي القرآن منزلة وحجية، فإن هذه المنزلة لم يكن متفقاً عليها في العصر الأول، ذلك أن تراثنا الإسلامي يضم في طياته مواقف نقدية كثيرة حول حجية الحديث... وأهملت الحديث في التشريع، منادية بأن يكون في القرآن في غنى عن أحاديث وسنن يصعب التعرف على مدى صدقها، ولم يبدأ تأسيس منزلة السنة إلا مع الشافعي (ت204هـ) حين عمل على حسم الصراع الفكري والديني وركز الأصول الفقهية في أربعة هي: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، فخلوله هذا الترتيب تثبيت مشروعية السنة بوصفها نصاً ثانياً لا يقل من حيث حججته عن النص الأول أي القرآن»².

وتتضح الرؤية الحدائيه بخصوص حجية السنة في التشريع الإسلامي أكثر من خلال عرض رؤية نصر حامد أبو زيد للمكانة التشريعية للسنة في كتابات الإمام الشافعي فيقول: «وسع (الشافعي) مفهوم السنة بحيث يضم الأقوال والأفعال والموافقات، وبعد أن جعلها حياً مساوياً للقرآن من كل وجه... وإن القارئ لخطبة

1 - طه عبد الرحمن، روح الحدائيه، ص192.

2 - محمد حمزة، اسلام المجددين، دار الطليعة، بيروت، ط01، 2007، ص98.

"الرسالة" مثلاً، من منظور تحليل الخطاب يمكنه أن يستشف المكانة المتميزة جداً لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم في خطاب الشافعي، وهي مكانة تتجاوز حدود الخطاب السابق على الشافعي من هذه الزاوية¹.

إضافة إلى ذلك يوجد من الحدائين من يظن أن حجية السنة النبوية لم تكن أمر بديهاً عند السلف على اعتبار أن إنكار حجية السنة النبوية يعد موقفاً متجزراً في تراثنا الإسلامي ظهر منذ زمن الأئمة الأربعة، ومنه فلا ريب من أن الضمير الإسلامي لم يقتنع بهذه البداهة إلا بعد انتصار مدرسة الحديث، التي فرضت الاعتماد على السنة بصفتها أصلاً ثانياً من أصول التشريع الإسلامي بعد القرآن، لذلك قد برز في العصر الحديث من ينكرون حجية السنة اعتماداً على أدلة من القرآن وأطلقوا على أنفسهم اسم القرآنيين²، ولذلك فالحجية المثبتة للسنة النبوية في نظر حسن حنفي لم تكن لا في زمن الرسول ولا في زمن الصحابة، وذلك لأنهم لم يعتبروا في وقت من الأوقات الأحاديث النبوية هي وحي³.

ويمكن مناقشة هذه الأقوال كما يأتي:

إن ما ذهب إليه بعض دعاة الحدائة من أن السنة في أساسها لم تكن حجة في وجدان المسلمين، وإنما أسس حجيتها الإمام الشافعي في نهاية القرن الثاني للهجرة، وعلى ذلك درج المسلمون بعد الشافعي واستقر في وجدانهم حجية السنة، وبفعله هذا أنهى جدلاً واسعاً في زمانه حول حجية السنة، هو رأي في الحقيقة لا يستقيم، وذلك لأن الروايات العديدة وتواتر الأخبار يشير إلى أن حجية السنة لم يكن موضوعاً مفتوحاً للجدال أصلاً، بل كانت حجيتها مما توافق عليه الجيل الأول ومن جاء بعدهم، ثم إنه يوجد في أفراد الشافعي لهذا الموضوع جزءاً قليلاً من كتابيه الرسالة والأم دلالة واضحة على أن الأمر من البديهيات عند من سبقه، وكذا لم يتوسع بإيراد الأدلة العقلية والنقلية في المسألة، وذلك نظراً لكون حجية السنة النبوية لدى

1 - نصر حامد أبو زيد، الأمام الشافعي واستحالة التأصيل، ص 44، 45.

2 - حمادي ذويب، السنة بين الأصول والتاريخ، ص 70، 71.

3 - محمد شحرور، الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة، ص 546.

الأجيال الأولى ثابتة نقلاً، ومستقرة في وجدانهم عقلاً ، فلم تحتج إلى كثير نقاش في مسألة إقرار حجيتها¹.

كما تعد حجية السنة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم مما علم من الدين بالضرورة، لتظاهر وتظافر الأدلة على ذلك، وهي مرتبطة ارتباطاً مباشراً بأصول العقيدة، فإنها الترجمة الحقيقية للإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك فإنه لم يقع نزاع حولها بين المسلمين قاطبة ممن يعتد به في الخلاف والوفاق².

خاتمة:

وفي الختام فإن محاولة البحث أفضت بي إلى جملة من النتائج هي كالآتي:

الفكر الحدائهي صاغ مفهوم السنة النبوية على أنها: التجربة البشرية الأولى لفهم القرآن الكريم من طرف النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وبهذا المفهوم تكون السنة قد أخرجت من كونها وحيّاً إلى كونها فهماً تاريخياً للقرآن على اعتبار أنها تمثل فقط الاجتهاد الأول لفهم وتفسير القرآن وليس الفهم الثابت والدائم أو الأخير.

يرى الحدائهيون أن القرآن يختلف عن السنة في كونه حقيقة موضوعية، لها وجود قائم بذاته منفصل عن الإنسان، وعليه فهو من وضع الله تعالى، على عكس السنة فهي ذاتية بحيث ليس لها أي وجود خارج الوعي الإنساني، وعليه فهي ذاتية أي ذات وضع بشري (محمد) وليست وحيّاً من الله عز وجل لرسوله محمد.

يعتقد دعاك الفكر الحدائهي أن تدوين السنة النبوية لم يأت إلا نتيجة أسباب سياسية، تعود لمصلحة الدولة الأموية ثم بعدها الدولة العباسية، من أجل التدليل على شرعية حكمها من خلال الأحاديث النبوية.

إن الحدائهيين أرادوا نقد حجية السنة انطلاقاً من وصفها بالتاريخية، وهذا يعد من أخطر ما توصلت إليه القراءة الحدائية للسنة، إذ إن ذلك الأمر يهدف إلى إسقاط حجية السنة ورفض اعتبارها مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي.

1 - الحرث فخري عيسى عبد الله ، الحداثة وموقفها من السنة ، ص 136، 133.

2 - الحسين شواط، حجية السنة وتاريخها، ص 236.

يظن دعاة الفكر الحدائني أن السنة ليست بحجة، ولذلك هم يعارضون فكرة كون السنة المصدر الثاني في التشريع الإسلامي، ويزعمون أن الشافعي هو من أسس حجيتها في نهاية القرن الثاني للهجرة، ولكن هذا غير صحيح، بدليل الروايات العديدة وتواتر الأخبار التي تنص على أن حجية السنة لم يكن موضوعاً مفتوحاً للجدال أصلاً، بل كانت حجيتها مما اتفق عليه الجيل الأول ومن جاء بعدهم.

توصيات البحث:

وأما واجبنا نحن الباحثين المسلمين فهو أن نقارع مثل هذه الأفكار والأقوال الشاذة بنفس أسلحتها، وعلينا أن لا نكتفي بالإدانة والرفض لها، لأن ذلك إذا لم يقترن بالحجة والبرهان يكون ضرره أكثر من نفعه، ولذا فلا بد من قراءة مصادر الحدائين ومراجعهم والاطلاع على أحدث ما يعتمدون عليه من فلسفات، وذلك لأننا اليوم في حاجة إلى أن نطلع على تلك الأفكار في منابعها، ونتابع ما آلت إليه تطبيقاتها في واقعها، لكي نتمكن من رؤية حقيقية لأضرارها ومنافعها وهذه توصيتي الأولى.

وأما التوصية الثانية: فإنني ألاحظ أن البحوث الأكاديمية في أقسام الدراسات الإسلامية تولي اهتماماً لدراسة التراث، أكثر من اهتمامها بدراسة الواقع الفكري الحدائني الذي يفرض نفسه، وترتب عن ذلك ترك المجال مفتوحاً أمام الباحثين التابعين لأقسام اللغة العربية والفلسفة المعروفين بضعف زاهم الديني، مما قد يؤدي بهم إلى التأثير ببعض الأفكار الحدائية دون سابق علم. ولذلك أنا أدعو القائمين على الدراسات الأكاديمية في الجامعات الإسلامية إلى توجيه طلابهم إلى البحث في مجال الحدائية كي لا تبقى دراساتهم حبيسة الماضي بعيدة عن الواقع الفكري الراهن، والله من وراء القصد.

المصادر والمراجع:

- 1) ابن منظور: لسان العرب، مادة (الحدائثة) دار المعارف، القاهرة، ط 01، 1300 هـ.
- 2) أحمد إدريس الطعان، العلمانيون والقرآن الكريم، دار ابن حزم، الرياض، ط01، 2008.
- 3) الحرث فخري عيسى عبد الله، الحدائثة وموقفها من السنة، القاهرة، دار السلام، ط 01، 2013 .
- 4) حسن حنفي، التراث والتجديد، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط 4، 1992.
- 5) حسن حنفي، دراسات فلسفية، القاهرة، دار الأنجلو المصرية، د.ط، دت.
- 6) حسن حنفي، من العقيدة إلى الثورة -المقدمات النظرية -، بيروت، دار التنوير، ط 01، 1988.
- 7) الحسين شواط، حجية السنة وتاريخها، الجامعة الأمريكية العالمية، ط01، 2004م.
- 8) حمادي ذويب، السنة بين الأصول والتاريخ، الرباط، المركز الثقافي، ط:02، 2013.
- 9) السجستاني، سنن أبي داود، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ط، دت.
- 10) السيد صدر الدين القبانجي: الاسس الفلسفية للحدائثة، دن، د ط، 1432 هـ 2010م.
- 11) طه عبد الرحمن، روح الحدائثة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط:01، 2006.
- 12) عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، سنن الدارمي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 01، 1407.
- 13) عبد المجيد الشرفي، الإسلام بين الرسالة والتاريخ، بيروت، دار الطليعة، ط 01، 2001.
- 14) عبد المجيد الشرفي، الإسلام والحدائثة، ط02، تونس، دار التونسية، 1991.

- 15) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط2، 1964 م.
- 16) محمد أركون، الفكر الاسلامي قراءة علمية، بيروت، مركز الانماء القومي، ط2، 1996 م.
- 17) محمد بن عبد العزيز بن أحمد العلي، الحداثة في العالم العربي دراسة عقديّة، بحث لنيل درجة الدكتوراه، قسم العقيدة والمذهب المعاصرة، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1414.
- 18) محمد بن محمد أبو شهبه، دفاع عن السنة، مكتبة السنة، دط، 1989.
- 19) محمد حمزة، اسلام المجددين، بيروت، دار الطليعة، ط01، 2007.
- 20) محمد شحرور، الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة، سورية دمشق، دار الأهالي، دط، دت.
- 21) محمد شحرور، د.ت، دراسات إسلامية معاصرة الدولة والمجتمع: د.ط، دمشق، دار الأهلي.
- 22) محمد شحرور، نحو أصول جديدة للفقهاء الإسلامي، سورية دمشق، دار الأهالي، ط01، 2000.
- 23) محمد صديق خان البخاري، فتح البيان في مقاصد القرآن، د.ط، بيروت، المكتبة العصريّة، 1412 هـ
- 24) محمد عمارة: ضبط مصطلح الحداثة، ضمن أعمال ندوة بعنوان (الحداثة وما بعد الحداثة)، برعاية جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 13/ 1998/ 03.
- 25) مرزوق العمري، إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحداثي العربي المعاصر، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه، قسم العقيدة ومقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2005-2006 م.
- 26) مسلم بن الحجاج بن مسلم، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، بيروت، دار الجيل، د.ط، د.ت.
- 27) مصطفى بن حسني السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط:03، 1982 م.

- (28) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، القاهرة، مكتبة وهبة، ط07، 1995.
- (29) نادر حمامي، إسلام الفقهاء، بيروت، دار الطليعة، ط: 01، 2006.
- (30) نصر حامد أبو زيد، الأمام الشافعي واستحالة التأصيل، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط02، 1996.
- (31) نصر حامد أبو زيد، النص السلطة الحقيقة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط: 01، 1995.
- (32) نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، الرباط، مكتبة الفجر الجديد، ط: 01، 2014.
- (33) النوري، المسند الجامع، بيروت، دار الجيل، ط01، 1993م.